﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾ [النور: 12]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

حَمَلَتْ آياتُ الإفكِ التَّوجيهاتِ الوقائيَّةَ والعلاجيَّةَ للإشاعاتِ

لَمّا أخبر ﷻ بعقاب مَنْ تكلَّم بالإفك، وكان من المؤمنين مَنْ سمعه، فسكت، وفيهم مَنْ سمعه، فتحدَّث به مُتعجِّبًا من قائله، أو مُستثبتًا في أمره، ومنهم مَنْ كذَّبه؛ أتبعه سبحانه بعتابهم في أسلوب خطابه لهم، مثنيًا على مَنْ كذَّبه، وأنكره[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ظَنَّ﴾: (ظنّ) أصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على مَعْنَيَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ: يَقينٍ وشَكٍّ، فأَمّا اليَقينُ؛ فقَوْلُ القائِلِ: ظَنَنْتُ ظَنًّا: أَيْقَنْت، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 249]، أَرادَ: يوقِنونَ، والأَصْلُ الآخَرُ: الشَّكُّ، يُقالُ: ظَنَنْتُ الشَّيْءَ؛ إذا لَم تَتَيَقَّنْهُ، ومِنْ ذَلِكَ الظِّنَّةُ: التُّهْمَةُ، والظَّنينُ: المُتَّهَمُ[2]، ومنه في القرآن الكريم: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: 87][3]، والأقربُ في نور السّياق أن يُحمَل الظَّنُّ على ظاهرِهِ مِن الحقيقة، فالأبرُّ والأَوْلى والأصلح للعبد في مِثْل هذا المقام أن يظنَّ في أهل الإسلام والإيمان خيرًا.

2) ﴿مُّبِينٌ﴾: (بون) أصلٌ يدلُّ على البُعد[4]، والمعنى المحوريُّ: امتدادٌ بين طرفَيْن أو جانبَيْن مع فصلٍ كبيرٍ أو اتِّساع، والبَيِّن ممتدٌّ كالفارغ؛ لأنَّ النَّظر ينصبُّ على نهايته البعيدة، والبائنةُ: البئرُ البعيدةُ القَعْرِ، والبَون (بالفتح والضم): مسافةٌ ما بين الشَّيئَيْن، فهذه المسافة

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 13/ 228.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظن).
(3) الراغب، المفردات: (ظنّ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بون).

مساحة فاصلة، وبان الشَّيء: اتَّضَح فهو بَيِّن، والبَيان: ما بُيِّن به الشَّيءُ من الدَّلالة[1]، وسمّي الكلام بيانًا؛ لكشفه عن المعنى المقصودِ إظهارُهُ، نحو: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 138][2]، ومعنى: ﴿مُّبِينٌ﴾ في الآية الكريمة: كاملُ الإبانة؛ فهو واضحٌ في نفسِهِ، موضِّحٌ لغيره.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

في الآيةِ تحضيضٌ على حُسنِ الظَّنِّ بالمؤمنين

هلّا حين سمعتم - أيُّها المؤمنون والمؤمنات - هذا الإفك ممَّن أَذاعوه؛ ظننتم بأَهل مِلَّتكم: عائشة وصفوان ﷺ خيرًا وطُهرًا، وقلتم بلا تردُّدٍ ولا ريبٍ: هذا افتراءٌ واضحٌ مكشوفٌ لا نرضاه لِمَنْ هم كأَنفسنا، ولا نوافق على نسبته إليهما[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصلِ الآيةِ عن سابقتِها:

حُسنُ الظَّنِّ بأهلِ الإيمانِ نورٌ عظيمٌ

لم تُعطف هذه الآيةُ على سابقتها؛ لأنَّها جاءتِ استئنافًا ابتدائيًّا لتوبيخ عصبةِ الإفك من المؤمنين، وتعنيفهم[4]، قال الفخر الرّازيُّ: "واعْلَم أَنَّهُ ﷺ لَمّا ذَكَرَ القِصَّةَ، وذَكَرَ حالَ المَقْذوفَيْنِ والقاذِفينَ؛ عَقَّبَها بِما يَليقُ بها من الآداب والزَّواجر، وهي أنواع؛ منها: كان الواجب على المؤمنين - إذا سَمِعوا قَوْلَ القاذِفِ - أَنْ يُكَذِّبوهُ، ويَشْتَغِلوا بِإِحْسانِ الظَّنِّ، ولا يُسْرِعوا إِلَى التُّهْمَةِ فيمَنْ عَرَفوا فيه الطَّهارَةَ"[5]، وعلى هذا فإنَّ هذه الآيةَ إنَّما جاءت مفصولةً عن سابقتها؛ لأنَّها تُمثِّل الإجراءَ الاحترازيَّ الأوَّل إزاء مكافحة الإشاعات، وهذا الإجراءُ يتعلَّق بالإجراءات الدّاخليَّةِ القائمة على إحسانِ الظَّنِّ بمَنْ جاءَ النَّقل عنه من الأخبارِ الكاذبةِ.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصَّل: (بون).
(2) الرّاغب، المُفردات: (بين).
(3) مجموعةٌ من المؤلّفين، التّفسير الوسيط: 6/ 1377.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 173.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 340 - 341.

معنى ﴿لَّوۡلَآ﴾:

مِـثْـلُ تلك العُصبةِ جديرٌ بالذَّمِّ والزَّجرِ

﴿لَّوۡلَآ﴾ هنا حرف بمعنى (هلَّا) معناه الزَّجر والتَّوبيخ كما هو شأنها إذا وليها الفعل الماضي، وهو هنا ﴿ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾[1]، وفيه عتاب للمؤمنين؛ لأنَّ منهم من سمع بالإفك فسكت، وفيهم من سمعه فتحدث به متعجباً من قائله، أو مستثبتاً في أمره، ومنهم من كذبه[2]، فأرشدهم الله تعالى إلى ما كان ينبغي أن يكون من المؤمن في مثل هذه الأحوال، من التَّثبُّت، وظنِّ الخير بإخوانه، وكفِّ لسانه عن أعراضهم.

معنى ﴿إِذۡ﴾:

﴿إِذۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ﴾ ظرفيَّةٌ زمانيَّةٌ بمعنى (حين)، والمعنى: هلّا حين سمعتموه ظننتم بأنفسكم خيرًا.

غرضُ تقديمِ الظَّرفِ ﴿إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ﴾ على عامِلِه:

إنَّما حُسنُ الظَّنِّ بالمؤمنين عند سماعِ الخبرِ

ذهب ابن عاشور إلى أنَّ "تَقْديمَ الظَّرْفِ - وهوَ ﴿إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ﴾ - على عامِلِه، وهوَ - ﴿ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ﴾ - جاء لِلاهْتِمامِ بِمَدْلولِ ذَلِكَ الظَّرْفِ تَنْبيهًا على أَنَّهُم كانَ مِنْ واجِبهم أَنْ يَطْرُقَ ظَنُّ الخَيْرِ قُلوبَهُم بِمُجَرَّدِ سَماعِ الخبر، وأَن يتبرَّؤوا مِنَ الخَوْضِ فيه بِفَوْرِ سَماعِهِ"[3]، وفي تقديمه تنبيهٌ على ما يجبُ على العبد عند سماع الأخبار عمومًا، وعند سماع مِثْلِ خبر الإفكِ خصوصًا، مِنَ التَّريُّث والتَّثبُّت والتَّبيُّن؛ حتى لا تشيعَ الأخبارُ الكاذبةُ بين النّاس، فتهدمَ حيواتهم ومجتمعهم.

نكتةُ العدولِ في قولِهِ: ﴿ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾:

مـثـلُ هـذه الافـتـراءاتِ ينبغي التَشكُّكُ فيها ابتداءً

في الآية الكريمة التفاتٌ لطيف، فبدلًا من القول: (لولا إذ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 174.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 13/228.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 174.

سمعتموه؛ ظننتم بأنفسكم خيرًا، وقلتم)، اختار السّياق القرآني ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟﴾، وفي ذلك مبالغةٌ في التوبيخ بطريقة الالتفات، وتصريحٌ بلفظ الإيمان، دلالة على أنَّ الاشتراك فيه مُقتضٍ ألّا يُصدِّق مؤمنٌ على أخيه، ولا مؤمنةٌ على أختها قولَ غائبٍ، ولا طاعن، وفيه تنبيهٌ على أنَّ حقَّ المؤمن - إذا سمع قالةً في أخيه - أن يُبني الأمرُ على الظَّنِّ لا على اليقين، وأن يقول بملْءِ فيه بناءً على ظنِّهِ بالمؤمن الخير: هذا إِفْكٌ مُبِينٌ[1].

نكتةُ إسنادِ السَّماعِ إلى الجميعِ:

في إسنادِ التَّحضيضِ إلى الجميعِ عنايةٌ بالأمرِ المُحضَّضِ عليه

أَسْنَدَ الخطابُ القرآنيُّ الحكيمُ السَّماعَ إلى جَميعِ المُخاطَبينَ، وخَصَّ بالتَّوْبيخِ مَنْ سَمِعوا، ولَم يُكَذِّبوا الخَبَرَ، وجَرَى الكَلامُ على الإبْهامِ في التَّوْبيخِ بِطَريقَةِ التَّعْبيرِ بِصيغَةِ الجَمعِ، وإنْ كانَ المَقْصودُ دونَ عَدَدِ الجَمعِ، فإنَّ مَنْ لَم يَظُنَّ خَيْرًا رَجُلانِ؛ فعَبَّرَ عَنْهُما بالمُؤْمِنينَ، وقَوْلُهُ: ﴿بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ وقَعَ في مُقابَلَةِ ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾، فيَقْتَضي التَّوْزيعَ؛ أَيْ: ظَنَّ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُم بِالآخَرينَ مِمَّنْ رَمَوْا بِالإفْكِ خَيْرًا؛ إذْ لا يَظُنُّ المَرْءُ بِنَفْسِهِ، وهذا كَقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحُجُرات: 11]، أَيْ: يَلْمِزُ بَعْضُكُم بَعْضًا، وقَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النّور: 61][2].

معنى(أل) في ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾:

التَّعريفُ للعهدِ الذِّهنيِّ أو الاستغراقِ

أفاد التَّعريفُ في ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ العهدَ الذِّهنيَّ على معنى: ظنَّ المُتكلِّمون بالإفك في أمِّ المؤمنين ﵂ وصفوان خيرًا، والأفضل حملُها على الجنسيَّة الاستغراقيَّة؛ لتعمَّ المؤمنين والمؤمنات جميعًا؛ حيث إنَّ الأصل أن يُحسنوا الظَّنَّ بأنفسهم في كلِّ الأحوال.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 218.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 174.

معنى الباءِ في قوله: ﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾:

الباءُ في قوله: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ﴾ لتعدية فعل الظَّنِّ إلى المفعول الثّاني؛ لأنَّه متعدٍّ هنا إلى واحدٍ هو في معنى الاتِّهام[1]، فضلًا عن دلالتها في غالب أحوالها على الملابسة والإلصاق، على معنى: (ظنّوا ظنًّا مُلابسًا لهم لا يُفارقهم خيرًا).

إفادةُ تعديةِ فعلِ الظَّنِّ، والدّلالةُ غالبًا على الإلصاقِ

دلالةُ قوله: ﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾:

الأنفس هنا تُحتمل أن تكون أنفس الظّانّين حقيقةً؛ لأنَّ الإنسانَ لا يظنُّ بالناس إلّا بما هو متَّصفٌ به أو بإخوانه؛ لأنَّ المؤمنين كالجسد الواحد، أو ما يُظَنُّ بالرَّجل لو خلا بأمِّه، وبالمرأة إذا خلت بابنها، فإنَّ نساءَ النَّبي ﷺ أمَّهات المؤمنين، ويُحتمل أن تكون أنفس المظنون بهم على سبيل تنزيل أبناء جنسِ المؤمنينَ والمؤمنات في الآية منزلةَ أنفسِهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: 11]، فإذا جَرَى على أَحَدِهم مَكْروهٌ؛ فكَأَنَّهُ جَرَى على جَميعِهِم[2].

في سوءِ الظَّنِّ بأهلِ الإيمانِ هدمٌ لأواصرِ المجتمع

نكتةُ تقديمِ شبه الجملة ﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾:

أصلُ التَّرتيب للجملة: (ظنَّ المؤمنون والمؤمنات خيرًا بأنفسهم)، ولكنَّ النَّظمَ الكريم جاء على خلاف ذلك، فتقدَّمت شبه الجملة على المفعول؛ لأنَّ المقام يتعلَّق بحفظ هذه النُّفوس من الظَّنِّ السَّيِّئ، وأنَّه ينبغي ألّا يظنَّ الواحدُ منهم بغيره، إلّا كما يُحبُّ ألّا يظنَّ بنفسِه إلّا خيرًا، فمِن حقِّ نفوس الظّانّين أن يحفظَها أصحابُها مِن الوقوعِ في هذه المهالك، وكذلك مِن حقوق نفوس المظنون بهم عليهم أيضًا.

في حُسنِ الظَّنِّ كلُّ خيرٍ للنَّفس

معنى الواوِ في قوله: ﴿وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾:

الواو في قوله: ﴿وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ عاطفةٌ، وهي لعطف توجيهٍ جديدٍ على التَّوجيه السّابق، يقول ابن عاشور: وعَطْفُ

رُبَّ قولٍ يُهلكُ قائلَهُ أو يُفلحه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 174.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 341، والبقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 5/ 243.

﴿وَقَالُواْ هَـٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ تَشْريعٌ لِوُجوبِ المُبادَرَةِ بِإِنْكارِ ما يَسْمَعُهُ المُسْلِمُ مِنَ الطَّعْنِ في المُسْلِمِ بِالقَوْلِ، كَما يُنْكِرُهُ بِالظَّنِّ، وكَذَلِكَ تَغْييرُ المُنْكَرِ بِالقَلْبِ واللِّسانِ[1]، وعطفُ هذا القول على جملة الظَّنِّ إرشادٌ إلى ضرورة وجود هذا القولِ، وأنَّه كأنَّه أمارةٌ على هذا الظَّنِّ.

غرضُ التَّعبيرِ بالجملة الاسميَّة:

حسن الظَّنِّ بالمؤمنين أمرٌ واجبٌ أبدًا

في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ هَـٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ نُظمت جملةُ مقول قولهم: ﴿هَـٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ في صورة الاسميَّة الدّالَّةِ على الثُّبوت والاستقرار، على معنى أنَّ حسنَ الظَّنِّ بالمؤمنين وتكذيب الأخبار السَّيِّئة عنهم ينبغي أن يكون ديدنَكم وشأنَكم أبدَ الدَّهر، وفي الاسميَّة إشعارٌ بمطابقة القول للظَّنِّ، والظّاهر للباطن.

نكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ القريبِ:

عبَّرتِ الآيةُ عن الإفك باسم الإشارة المُستعمل للقريب ﴿هَـٰذَآ﴾؛ وذلك لقُرْبِهِ منهم وتداولهم إيّاه، فضلًا عن دلالة اسم الإشارةِ هنا على التَّحقيرِ والتَّقليل لشأن هذا الخبر الكاذب.

نكتةُ تنكيرِ ﴿إِفْكٌ﴾:

أفاد تنكيرُ الإفكِ في قوله تعالى: ﴿هَـٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ التَّحقيرَ والنَّيل من شأنه، وأنَّه حريٌّ به ألّا يُنقل على الألسنة.

نكتةُ وصفِ الإفك بأنَّه ﴿مُّبِينٌ﴾:

كلُّ إفكٍ ينادي على نفسِهِ بأنَّه إفكٌ مبينٌ

في معنى ﴿إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ يرى الفخر الرّازيُّ أن ذلك من وجهَيْن: "**الأوَّلُ**: كَذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يَقولَ، لَكِنَّهُ يُخْبِرُ بِذَلِكَ عَنْ قَوْلِ القاذِفِ الَّذي لا يَسْتَنِدُ إِلَى أَمارَةٍ، ولا عَنْ حَقيقَةِ الشَّيْءِ الَّذي لا يَعْلَمُهُ، **والثّاني**: أَنَّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 175.

ذَلِكَ واجِبٌ في أَمرِ عائِشَةَ؛ لِأَنَّ كَوْنَها زَوْجَةَ الرَّسولِ ﷺ المَعْصومِ عَنْ جَميعِ المُنَفِّراتِ كالدَّليلِ القاطِعِ في كَوْنِ ذَلِكَ كَذِبًا[1]، ومَعْنَى المُبينِ الظّاهِرُ الوضوحِ مِنْ (أَبانَ) الَّذي هوَ بِمَعْنَى: بانَ، ولَيْسَ مِنْ أَبانَ الَّذي هَمزَتُهُ لِلتَّعْدِيَةِ".

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 341.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والثلاثون،
سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 36 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-79-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 36 : المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-78-5
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-8956803 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»